قراءة في رواية " السـراب "
من الوجـهة النفسيـة

دكتورة

نجـلاء نصيـــر

قبل أن أشرع في الإبحار في هذه الرواية وقراءتها من الوجهة النفسية، نبدأ أولاً بإلقاء الضوء، على المنهج النفسي.

فالبحث العلمي «وسيلة للدراسة نصل من خلالها إلى حلٍ لمعضلةٍ ما، عن طريق الاستقصاء الشامل والدقيق لجميع الشواهد والأدلة، التي يمكن التحقق منها بهذه المعضلة المحددة»(١).

ومما لا شك فيه، أن المنهج النفسي يُعدُّ الركيزة الأساسية، التي انطلقنا من خلالها لقراءة رواية (السراب لنجيب محفوظ).

المنهج النفسي:

لقد أولى الباحثون في الأدب العربي اهتمامًا بالغًا بهذا المنهج، في السنوات الأخيرة. وذلك بعد أن «تقدمت الدراسات النفسية وتعددت مدارسها، وأخذت تفرض نفسها على كثيرٍ من مجالات الحياة الإنسانية، وبعد أن أخذ العلماء يرون فيها وسيلة جديدة لمعرفة النفس الإنسانية، والتغلغل في أغوارها السحيقةِ، والتعمق في سراديبها الغامضة وكهوفها المجهولة ..»[٢].

فالأدب مرآة تعكس المشاعر الإنسانية، ولسبر أغوارها ومعرفة خفاياها وانفعالاتها كان من الطبيعي أن تسهم الدراسات النفسية في فهم العمل الأدبي. وليس بغريبٍ أن يتحول بعض علماء النفس إلى الأعمال الأدبية ليفككوا شفرتها، وليرسموا طريقاً ممهداً يقف على أسباب عبقرية العمل الأدبي، والأديب.

ومن ثم برز هذا الفرع من فروع علم النفس الذي أطلق عليه "علم النفس الأدبي"[٣].

ومن خلال المنهج النفسي حاول مؤرخو الأدب الولوج إلى أعماق النفس الإنسانية، والنبش في «مكبوتات اللاشعور وعقد النقص والتفوق، وما إلى ذلك مما يقف عنده أصحاب الدراسات النفسية ويديرونه حول بحوثهم من أجل رسم صورة حياة لهذه الشخصيات ...»[٤].

ومهما يكن من أمرٍ، فيجب علينا في هذه الدراسة أن نفرق بين عالم النفس والناقد الأدبي. «فعالم النفس يهدف غالبًا إلى تحليل شخصية المبدع، أو شخصيات بعض الأعمال

الأدبية، والكشف عن الظواهر النفسية التي تتصل بالعمل الأدبي. أما مهمة الناقد الأدبي فتنحصر غالبًا في تحليل العمل الأدبي وتقويمه فنيًا والكشف عن دلالاته»(٥).

وفضلاً عن ذلك فإن العقاد يفضل النقد النفسي، ويرفعه على سائر مدارس النقد الأدبي. وذلك في قوله: «إذا لم يكن بد من تفضيل إحدى مدارس النقد على سائر مدارسه الجامعة، فمدرسة النقد "السيكولوجي" أو النفساني أحقها جميعًا بالتفضيل، في رأيي وفي ذوقي معًا، لأنها المدرسة التي نستغنى بها عن غيرها ولا نفقد شيئًا من جوهر الفن أو الفنان المفقود»(٦).

ويؤكد على هذا الرأي في قوله: «العلم بنفس الأديب يستلزم العلم بمقومات هذه النفس من أحوال عصره وأطوار الثقافة والفن فيه»(٧).

ومن المناسب بعد العرض السابق أن نتوقف عند مصطلح "القراءة":

مفهوم مصطلح القراءة:

وقد نشطت "القراءة" من خلال مقولات النقاد والباحثين حول نظرية التلقي، التي اعتمد فيها على القارئ، وإظهار استجابة القارئ الفطن للنص الأدبي.

ومن خلال تتبعنا لآراء "إيرز" الذي يرى أن القراءة تسير في اتجاهين متداخلين:

- من النص ... إلى القارئ.
- ومن القارئ ... إلى النص.

لذلك فالنص مصدر هام ينشط قدراتنا، ويمكننا من إعادة خلق العالم الذي يخلقه»(٨).

فالمتلقي هو «المهم في تشكيل النص الأدبي» في رأي روبرت هولب(٩).

فالقراءة تعني: «التفسير، والفهم والتبليغ»(١٠) في المعاجم العربية القديمة.

ومهما يكن من أمر؛ فنحن أمام مثير هو "النص" واستجابة أو مستجيب هو "المتلقي". وذلك لأن البحث في محتوى القراءة «يؤدي في أغلب الأحيان إلى التساؤل عن معنى النص أو معنى من معانيه»(١١).

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال

"ما العلاقة بين التحليل النفسي والأدب؟"

إن أهم الصلات التي تكشف العلاقة بين التحليل النفسي والأدب مقولات "فرويد" وفرضياته، التي رأى فيها أن الرغبات النفسية المكبوتة تعد ركيزة أساسية في تكوين شخصية المبدع. وانطلق من خلال عقدة أوديب، ومن ثم انطلق من خلالها في تحليل الملك أوديب "لسوفوكليس"، وهاملت "لشكسبير" والإخوة كارمازوف "لديستويفسكي".

فضلاً عن ذلك فقد اتخذ فرويد من شخصيات المبدعين، ومرضهم النفسي، وكبتهم الجنسي، سببًا في نبوغهم الإبداعي. «فقد حاول فرويد تحليل شخصية أوديب والكشف عن عقدته النفسية، مشيرًا إلى أن مشكله نحو أمه جاء نتيجة لرغبة مكبوتة في اللاوعي. لذلك قتل أباه وحقق رغبته، وحين اكتشف عن طريق الوعي ما حدث ندم وعاقب نفسه، «وقد أطلق فرويد على الرغبة المحرمة تجاه الأم وقتل الأب عقدة أوديب»[١٢].

فالتحليل النفسي للنص الأدبي يعد «جهاز مفاهيمي يعيد تشكيل العمق النفسي، ويشيّد نماذج لفك الشفرة»[١٣].

ومن ثم فالناقد الحاذق هو الذي يستطيع أن يسبر أغوار النص مستعينًا بأدواته وثقافته «فالنفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس. والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة»[١٤].

ومهما يكن من أمر فإن القراءة النفسية للنص الأدبي تعمق الصلة بين المبدع والمتلقي.

رواية السراب:

كتبها نجيب محفوظ في عام ١٩٤٨. ومن عنوان الرواية الذي يعد بمثابة المفتاح الذي يرسله المبدع للمتلقي، للوقوف على فك شفيرة النص، يحمل تكثيفًا لمغزاها، ويرسم المحور النفسي للرواية.

والسراب لغة:

قال ابن السكيت: «السراب الذي يجري على وجه الأرض كأنه الماء، وهو يكون نصف النهار»[١٥].

والسراب ظاهرة تنشأ عن انكسار الضوء في طبقات الجو عند اشتداد الحر، وتكثر بخاصة في الصحراء.

نستنتج مما سبق أن السراب هو الوهم، ويرى محمود أمين العالم أن السراب في فكرتها وبنائها الفني، تكاد تكون وجهًا آخر لزقاق المدق. إنها تقدم نموذجًا مناقضًا معكوسًا لحميدة بطلة زقاق المدق، ففي مقابل طموحها وفقرها وتمردها نجد كامل رؤبة لاظ بطل السراب في تردده وجبنه وخجله وعجزه وتلعثمه وانكماشه(١٦).

يربط محمود أمين العالم بين حميدة التي كانت تطمح وتتطلع للخروج من الزقاق إلى فضاء عالم آخر، تنفتح على الحياة وتتخلص من قيودها. بل إنها تصطدم بأحداث الحرب العالمية الثانية، يقابلها بطل السراب الذي آنس الانسحاب عن العالم الخارجي، وتقوقع نحو ذاته الجبانة. فالسراب تعد أنموذجًا للعجز ليس العجز الجنسي فقط، وإنما العجز عن التكيف مع العالم الخارجي، والعجز عن المشاركة، في شتى مجالات الحياة فجاء البطل خاملاً عاجزًا عن التعلم.

ومهما يكن من أمر؛ فالقارئ يجد نفسه يسير مع الرواية، في تسلسلها الأحادي. يسير مع كامل وفق اتجاه واحد.

«فالرواية تكاد تكون وثيقة نفسية حية لتجربة عقدة أوديب ...»(١٧).

فالطابع النفسي يطبع الرواية، وقد عزا محمود أمين العالم سر فشل كامل في علاقته بزوجته ليلة الزفاف، إلى عقدة أوديب. حيث تعلقه بأمه التي لم يكن يفارقها؛ فقد كان يرافقها في سريرها، حتى بعد أن بلغ سن الرجال. وفي ضوء غياب الأب السكير مع الخمر، تصدرت الأم مشهد تربية الابن، فدللته، وحبسته عن الناس، حتى نجدها تمنعه عن التعليم. ولولا جده لأمه ما ذهب للمدرسة، ويرى محمود أمين العالم أن الرواية تميزت بطابعها النفسي الانعزالي، مما فرض عليها بعض السمات الخاصة.

«فرغم الحركة النامية في اتجاه واحد، إلا أننا نفتقد تمامًا الإحساس بالزمن الدقيق، قد نعرف العالم الذي تتحرك فيه الأحداث، وقد يبرز شهر أكتوبر كشهر عودة المدارس ليبصر كامل رؤبة بالفتاة التي أحبها، ولكن الزمن مفقود في الرواية اللهم إلا الإحساس بالماضي كتجربة وجدانية عامة، ولكن التحديد الزمني الدقيق الذي نجده في الروايات الأخرى لنجيب محفوظ نفتقده في هذه الرواية»(١٨).

كما تفتقد الرواية من وجهة نظر محمود أمين العالم، إلى الإحساس بالإطار الاجتماعي أو السياسي، الذي نجده في روايات نجيب محفوظ الأخرى. وهذا يعود للطبيعة الانعزالية التي فرضها الإطار النفسي للرواية، لكنها لا تخلو من وحدة رائعة، جاءت نتيجة تسلسلها النفسي.

فالتسلسل النفسي أضفى على الرواية طابعًا خاصًا، وأضفى على لغتها إيقاعًا شعريًا جاء ثمرة الانعزال الوجداني، الذي يمثله بطل الرواية.

وإذا كانت قراءة محمود أمين العالم لرواية السراب اتخذت من عقدة أوديب ركيزة أساسية للتحليق في فضائها السردي، نجد على النقيض الدكتور عز الدين إسماعيل وقد اتخذ من عقدة أورست ركيزة للتحليق في فضاء الرواية السردي. يقول: «وهنا لابد من العودة إلى أورست فالموضوع الظاهر في قصته هو موضوع قتل الأم مقابل الموضوع الظاهر في أوديب وهو قتل الأب»(١٩).

والدكتور عز الدين إسماعيل يرى أن هناك علاقة توازي، تربط بين كليتمنسترا وأم كامل، وذلك لأن كليتمنسترا تعرضت لظلم شديد، وأنها تشعر بأن الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من حماية نفسها من عذاب المستقبل، هو التسلط على الآخرين. وهذا يذكرنا بما تعرضت له أم كامل من تعذيب من زوجها السكير، الذي كان يضربها وينكل بها. ولذلك بعد طلاقها انكبت على تربية ابنها، وأحاطته بعناية زائدة تعويضًا عما حدث لها فتحول حبها له لحب تملك وسيطرة مرضية، فما كان من كامل إلا أن «يتعلق بها وأن يخضع لسلطانها»(٢٠).

بينما يرى د. يحيى الرخاوي أن رؤية عز الدين إسماعيل «لم تكتمل ربما لغلبة الموقف الاستقطابي، وهو موقف أخلاقي أحادي البعد»(٢١).ويرى د.الرخاوي أن رواية نجيب لم تكن بحاجة لعقد أخرى "عقدة أورست" التي نادى بها عز الدين إسماعيل فرواية السراب من وجهة نظر د. الرخاوي «رواية تحليلية نفسية بوجه خاص»(٢٢).

فالقضية تكمن في عقدة "كامل رؤبة" التي تولدت داخله، من خلال مروره بحالة من الصراع مع والدته، لتحقيق استقلال شخصي، أو ليشعر بحريته مثل الأطفال أترابه. يقول نجيب محفوظ على لسان كامل: «وأدت حال أمي تلك معي إلى تأجيل تاريخ التحاقي بالمدرسة، فقاربت السابعة دون أن أتعلم حرفًا»(٢٣).

ومهما يكن من أمر فقد جعل نجيب محفوظ من شخصية كامل رؤبة لاظ شخصية محورية وقام بدور الراوي الذي يوضح لنا حد الانصهار في الأم، يقول: «فالحق أني ضحية، إلا أنني ضحية ذات ضحيتين، وأشد ما يحز في نفسي أن إحدى الضحيتين هي أمي. كانت أمي وحياتي شيئًا واحدًا وقد ختمت حياة أمي في هذه الدنيا، ولكنها لا تزال كامنة في أعماق حياتي»(٢٤).

كما يصور لنا البطل الصراع النفسي الذي يكابده في قوله: «فهي دائمًا وراء آمالي وآلامي وراء حبي وكراهيتي، أسعدتني فوق ما أطمع وأشقتني فوق ما أتصور ... وهل وراء الحب والكراهية من شيء في حياة الإنسان»(٢٥).

فشخصية الأم المتسلطة على ابنها هي محور العقدة في هذه الرواية، فالراوي "كامل" يسرد لنا خوفها المرضي عليه في قوله: «أقبلت تخوّفني أشياء لا حصر لها لتردّني عما أتطلع إليه من حرية وانطلاق»(٢٦).

ومهما يكن من أمر، فقد وقع كامل في أسر مخاوف الأم، التي شيدت لهما سياجًا محكمًا من المخاوف.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ما السبب المباشر لتعلق الأم المرضي بكامل؟؟ يعلل لنا الراوي حظ أمه العثر، الذي أوقعها في زوج سكير عربيد. يقول: «والحق أنها لم تذق الراحة إلا أيامًا معدودات، ولكنها تصبرت وتجلدت، عسى أن تصلح الأيام ما فسد من حاله ... فلم يكن يزداد إلا فسادًا، ولم تعد ترى فيه إلا سكيرًا عربيدًا لا يرعى لشيء حرمته ... وغادر جدي بائسًا وبيده شهادة الطلاق انقطع حياة الزوجية إلى الأبد، وكنت أنا ثمرة تلك النوبة الكاذبة»(٢٧).

فضلاً عن ذلك، فنحن أمام امرأة تلاعب بها رجل سكير عربيد، حاول قتل والده، وطرد من قصر أبيه، وعاش وحيدًا مع الخمر، وأخذ منها أخته وأخيه ولم يتبق للأم المكلومة العاثرة الحظ إلا بطلنا.

وهذا يفسر براعة نجيب محفوظ في خلق الدوافع النفسية، التي حولت حب الأم لابنها من حب قائم على العطاء والحنان، إلى حب مرضي متسلط دعامته الخوف.

يوضح "كامل" ذلك بقوله: «إنه كان حنانًا شاذًا قد جاوز حده.

ومن الحنان ما يهلك ... بل كنا نستحم معًا فتحطني في طست عاريًا، وتجلس أمامي متجردة فأرشها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على جسدها فأدلك به جسدي»[٢٨].

فالأحداث التي مرت بها الأم كانت المقدمة التي نتج عنها الآتي:

أ- تحول البطل إلى شخصية تخاف من كل شيء الناس، الظلام، الحيوانات، فأصبح الخوف أسلوب حياة.

ب- الشعور بالعجز الذي كان مستندًا لقصور ثقافته، وضعف ثقته في قواه العقلية.

ومهما يكن من أمر فقد انطلق نجيب محفوظ من خلال العقدة النفسية إلى ميدان الرواية السيكولوجية، كما يرى د. نبيل راغب «فهي أول رواية يخرج بها الكاتب عن نطاق الرواية الاجتماعية إلى ميدان الرواية السيكولوجية ... وكانت أيضًا آخر رواية بالنسبة لنجيب محفوظٍ، إذ عاد بعد ذلك إلى أسلوبه التقليدي الواقعي في الرواية التي تلتها»[٢٩].

فضلاً عن ذلك قرأ الناقد "جورج طرابيشي" الرواية برؤية تخالف رؤية

د. عز الدين إسماعيل، فانتقد البناء النفسي والفني للرواية، وأكد أودبية الرواية. ورأى أن نجيب محفوظ تعاطى الرواية من منظور "التجريد والعمومية"[٣٠].

ورأى أن البطل كان «مرتعًا للعقد النفسية»[٣١].

ورأى أن الأم تعد أنموذجًا للأوديبية، وأوجز "عقدة كامل" في أمرين؛ هما:

١- غياب الأب من حياته.

٢- كراهيته لأبيه.

ولكنني لا أتفق مع الأستاذ "جورج طرابيشي" في نعته نجيب محفوظ بالإخفاق. في تناول البناء النفسي والفني للرواية. وذلك لأن نجيب محفوظ كاتب موسوعيمطلع. وقد عرض لنا الرواية على لسان البطل،المتخبط الأفكاروالمشاعر. فكان من الطبيعي أن يكون السرد متوافقًا مع الحالة النفسية لهذا البطل العاجز.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل عامل الزمن يتجلى للمتلقي في هذه الرواية؟

فعامل الزمن يختلط على القارئ، يقول د. غالي شكري: «أما رواية السراب وقد ظهرت ١٩٤٨ ليست محددة بعامل الزمن فلم تدلنا أحداثها على إطارها التاريخي، ولعل هذه القصة هي العمل الوحيد للكاتب الذي خرج فيه عن خريطته الفنية، فنلمح تخصصًا كاملاً لموضوع معين في الرواية لا يمت بصلة قرابة غلى منهج نجيب محفوظ»[٣٢].

ومما لا شك فيه أن تحديد الإطار الزمني للرواية كان صعبًا ولكنه ليس مستحيلاً على الباحث الفطن، الذي يبحث بين السطور، ويعمل جاهدًا على فك شفرة النص الأدبي. فنحن أمام ما أطلق عليه د. مرتاض "الزمن الذاتي" أو "الزمن النفسي". «فالمدة الزمنية من حيث هي كينونة زمنية موضوعية لا تساوي إلا نفسها ولكن الذات هي التي حولت العادي إلى غير عادي»[٣٣].

فالراوي استخدم تقنية الاسترجاع حين بدأ الرواية واصفًا حياته «بشوط طويل تتقطع دونه الأنفاس»[٣٤]. وهو الذي ينقلنا لنقطة النهاية حين يقول: «فلا مشهد أرنو إليه إلا السماء ولا خاطر ينبثق في نفسي إلا الله»[٣٥].

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا خلت هذه الرواية من تحديد تاريخي للأحداث؟

وللإجابة على هذا السؤال؛ نقف أمام الراوي، ونتساءل: هل كان يمكن لهذه النفس القلقة المريضة بفوبيا الخوف، المختلفة عقليًا ونفسيًا، كما أطلق هو على نفسه أن يملي علينا أحداثًا تاريخية؟ وهو المنعزل عن الواقع الاجتماعي والسياسي المنغلق على ذاته؟؟

فضلاً عن ذلك فقد نجح نجيب محفوظ في رسم الشخصية المضطربة، التي لا تجيد أي شيء في الحياة المستهترة الفاشلة في الدراسة، وفي التواصل مع ذاتها، أو العالم الخارجي.

وهذا ما دلل عليه قول الراوي حين حدث إضراب بالمدرسة، وخرج التلاميذ ومكث هو بالفناء، خوفًا من الخروج. وفي حوار معلمه «لماذا خرجت عن الإجماع؟ أليس هذا الوطن وطنك؟»[٣٦].

فهذا الحوار قد وضعنا في حقبة تاريخية هامة، وهي الحقبة التي كانت تعاني مصر فيها من قيد الاحتلال والإقطاع. فالرواية لم تصرح لنا بهذا ولكن من بين السطور نجد أن والد البطل "رؤبة لاظ" التركي الأصل كان يسكن في القصور، ويمتلك الثروات. وفي الحوار الذي دار بيته وبين أمه «لأبيك أوقاف تدر عليه أربعين جنيهًا كل شهر غير البيت الذي يسكنه..»[٣٧].

ونستشف الحقبة التاريخية مما جاء على لسان السارد: «ولكم طرقت أذني أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار القطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها في نفسي صدى»(٣٨).

كما يخبرنا عن حبه لأم كلثوم التي بدأت مشوارها في العشرينيات، وذاع صيتها وانتشر في الثلاثينيات.

فالرواية ذاتية نفسية، فضل نجيب محفوظ أن يسردها على لسان الراوي (البطل)، الذي كتب ليبعث من جديد «أروم بعثًا جديدًا حقًّا ويومذاك تصبح آلامي لاشيء يطويها الفناء إلى الأبد»(٣٩).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هل ترك الراوي المضطرب مساحة كافية للأشخاص، يحلقون فيها في فضاء الرواية أم لا؟

فرغم بناء الرواية وتسلسل أحداثها، إلا أن كامل قلص، وقيد دور الشخصيات في الرواية، على النحو الآتي:

- الجد: «كان يميل للشراب والمقامرة».
- الأميرالاي عبد الله بك حسن: فيصفه لنا من خلال صورة «هي صورة كبيرة يظهر فيها جدي جالسًا على مقعد كبير، بجسمه الضخم وكرشه الكبير وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه، في بذلته العسكرية المحلاة بالنياشين»(٤٠).

- الأم: زينب هانم:

ويصفها «بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حالمة تقطر حنانًا...»(٤١)، ويصف رؤبة أمه «وكانت تقطع أمي الخطوات الأولى بعد الخمسين ... فقد سارع إليها الكبر .. جف عودها، واشتعل مفرق شعرها وسوالفها شيبًا إلا أنها تمتعت بصحة جيدة، كما حافظ وجهها على جماله وبهائه»(٤٢).

- الأب: رؤبة بك لاظ

«لم يكن ذا عمل ولا علم بل ولا مال حتى ذلك الوقت ولكنه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين ... كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس ... سكيرًا عربيدًا لا يرعى لشيء حرمة... حاول في ساعة نزق وجزع أن يدسّ السمّ لأبيه متعجلاً حظه من الميراث ولكن الأب اكتشف الجريمة بواسطة الطباخ فطرد ابنه ...» فهو رجل ستيني العمر، أبيض البشرة، محمر الوجه، والعنق متفتح الأوداج، أسود العينين جحظت مقلتاه وتشابكت بها خطوط حمراء دقيقة كالشعيرات بها نظرة زائغة شاردة خاملة»[٤٣].

ويصف كامل والده حين التقى به «في الستين من عمره، بدينًا، وإن بدا في جلبابه الأبيض الفضفاض أبدن من الواقع بكثير، أبيض البشرة، محمر الوجه والعنق ...»[٤٤].

- كامل (البطل)

ويلعب دور الراوية أو السارد، فهو الشخصية المحورية في الرواية، والمحرك الرئيس لأحداثها، وصف نفسه: «وإني لغبي كسول ...»[٤٥]، صورة من أمه يقول: «يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرره في وجهي حتى لقد قيل لا يفرق بيننا إلا الثياب..»[٤٦].

- راضية: الأخت الكبرى

ويصفها قائلاً: «بهرني جمال أختي رأيتها أقصر من أمي قليلاً ممتلئة بضة، ميالة للبياض، أما وجهها فصورة من وجه أمي ..»[٤٧].

- مدحت: الأخ

وصفه بقوله: «صورة طبق الأصل من أبي ... سافر إلى عمي بالفيوم ليجد وظيفة ..»[٤٨].

- صابر أفندي أمين (زوج راضية موظف بالحقانية)

«أما مدحت فأنموذج من نوع آخر، بدين في غير إفراط، مستدير الوجه والرأس، أبيض مشرب بحمرة أسود العينين ينم مظهره عن الفحولة والقوة وإن لم يجاوز الثامنة عشرة، وكان يقهقه ضاحكًا لأتفه الأسباب»[٤٩].

- رباب (زوجة كامل)

ذات «قامة طويلة وقد نحيف رشيق وبشرة قمحية»[٥٠].

ويصف كامل ملامحها «فرأيت في عجلة المذعورين عينين عسليتين صافيتين تقطران ملاحة وأنفًا دقيقًا وشفتين رقيقتين ... في ردائها الطويل تحوط بها هالة الوقار والاحتشام ...»[٥١].

ويصف موتها بعد إجهاضها قائلاً: «واتجه بصري إلى الفراش فرأيت رباب نائمة مغطاة إلى عنقها، وقد التف منديلها حول وجهها من قمة الرأس إلى أسفل الذقن مارًا بالأذنين، كانت عيناها مغمضتين وبشرة وجهها شاحبة باهتة يشوبها بياض مخيف ...»[٥٢].

- جبريل السيد (والد رباب)

مفتش ري بالأشغال، في الخمسين من عمره، له قامة رباب وعيناها. وهو رقيق مهذب وهو من الأزواج المطيعين. فزوجه هي الآمرة الناهية في البيت وهو «من أولئك الرجال الذين لا يبرحون بيوتهم إلا للضرورة القصوى فإن لم يكن في رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو في بيته وبين زوجه وأبنائه ..»[٥٣].

- نازلي هانم (والدة رباب)

«ميالة للقصر، مفرطة في السمنة. وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها بلا ريب ... بدت لي ظريفة من غير تكلف»[٥٤].

- الدكتور أمين رضا

"كان شابًا في الثلاثين أكثر تقدير، نحيف القوام، طويل القامة، مجعد الشعر، ذو بشرة سمراء وقسمات واضحة، ودقيقة وعينان حادتان تلمعان وراء نظارة أنيقة يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقارًا ليس من سنه في نظراته كبرياء وترفع واعتزاز وثقة بالنفس حد الغرور»[٥٥].

- عنايات

«كانت فوق الأربعين .. وكانت على رغم تألقها وتزينها أقرب للدمامة منها للحسن ذات وجه مستدير غليظ وعينين بارزتين .. وأنف قصير أفطس وشفتين ممتلئتين ووجنتين متكوريتين منتفختين وشعر جعد ولامع ...»(٥٦).

وهكذا بدت الشخصيات مرسومة بريشة كامل رؤبة المتخبطة، القلقة، فبدت سطحية. ولقد وظفها حسب حالته النفسية المريضة المختلة.

وإذا انتقلنا لمعجمه اللغوي لوجدنا أثر التدين واضحًا جليًا، فهو يستخدم كلمات مثل "الإثم – الخطيئة – الحرام" حين يمارس العادة السرية، ويندم على فعلها. ثم يلتمس في الصلاة المخرج والأمل والنجاة، من ذنوبه. وهنا يتجلى الصراع بين الوعي واللاوعي عند البطل، فاقتراف المعاصي تنتج عن اللاوعي. ولكن الشعور بالندم، والرغبة في التوبة، والتكفير عن الذنوب تنتج عن الوعي. فحين شرب الخمر وذهب إلى حي البغايا وصفه "ببؤرة فساد"، وتتردد مفردات على لسان البطل منها "شيطان – جحيم – ملاك – إثم – معصية". فلكامل خلفية دينية مما تعلمه من أمه، ومن تردده معها على زيارة أولياء الله الصالحين وأهل البيت "السيدة زينب".

كما يصف لنا نشوة الحب، بأنها أقوى من نشوة الخمر. وكيف لا يشرب الخمر وهو ابن رؤبة لاظ السكير العربيد!! يقول «فأنزع قلبي حنانًا وشوقًا وهزتني نشوة فوق نشوة الخمر»(٥٧).

وحين يكتشف خيانة رباب فإنه يدفعه عجزه وتمرده، إلى إعلان كفره أمام أمه، فيكون ذلك سببًا في موتها. يقول: «ألا يزال أرحم الراحمين؟ وداعًا فلن أعبده بعد اليوم»(٥٨).

وبقراءة الحوار الذي دار بين كامل وأمه بعد موت رباب، ندرك أننا أمام إنسان مكبل بالحيرة، بين الأم التي تمثل التيار المحافظ العتيق، بل السياج الذي يحيطبكامل، حد القيد. والزوجة المثقفة المتعلمة العاملة، التي تمثل التنوير، والحلم، والغد المشرق، فليس لها علاقة بخرافات، ترسخت على أيدي الأم، في ذهن كامل من قصص والدته، يقول: «أقبلت تخوفني أشياء لا حصر لها لتردّني عما أتطلع إليه من حرية وانطلاق ولتحتفظ بي في حضنها على الدوام ملأت أذني بقصص العفاريت والأشباح والأرواح والجان والقتلة واللصوص حتى خلتني أسكن عالمًا حافلاً بالشياطين والإرهاب»(٥٩).

وهذا يفسر لنا سر شخصيته الضعيفة، المترددة، القلقة، أو المختلة. كما كان يطلق على نفسه وعلى النقيض يلتقي رباب الفتاة المتفتحة المثقفة، التي تعمل كمدرسة. وفي محاولة للأم من تنفيره منها تقول: «إن بنات الأسر الطيبة لا يشتغلن مدرسات ..»(٦٠). فيرد كامل «يا لها من آراء فاسدة! ... أنت لا تدرين شيئًا عن الدنيا، التي نعيش فيها لقد تغير كل شيء..»(٦١).

وهذا الصراع الذي يعانيه البطل، يفسر لنا سر عجز كامل. ليس مع زوجته فقط، بل عجزه في التوفيق بين والدته وبين زوجه. ويوضح لنا أنه ضحية «إلا أنني ضحية ذات ضحيتين»(٦٢).

فهو لم يتمكن من كسر قيد أسر والدته لذلك فشل في إقامة علاقة زوجية سوية مع رباب .

وأكد على هذا الصراع بقوله: «فعند حبيبتي يطارني طيف أمي، وعند أمي —كان— يخيفني طيف حبيبتي»(٦٣).

ويقع كامل «فريسة همين قاتلين ترددي وأمي ومن يدري فلعل أمي هي الهم كله»(٦٤).

وكان يراوده هاجس التخلص من أمه فكان لا يرى زواجه محققًا إلا بموت أمه .

فكان في أحلام يقظته يتزوج محبوبته لكنه لم يكن ير أمه ،ولكنه سرعان ما يستيقظ ويستغفر، ويطلب لها «اللهم غفرانك، اللهم اكتب لها طول العمر»(٦٥).

ويصور لنا محاولات أمه لتصده عن الزواج، وترسم له صورة الزوجة الجديرة به «يبهر حسنها الأعين، وتطرى أخلاقها الألسن، من أسرة كريمة ذات مجد، فتهيئ لنا قصرًا شامخًا»(٦٦).

كما كانت تضرب له مثلاً بحياتها الفاشلة، لتثنيه عن عزمه .لكن حين فشلت مساعيها في إقناعه، لم تجد قولاً، إلا مطالبته بالحفاظ على دينه :«لم يعد في وسعى واأسفاه أن أستبقيك إلى جانبي فإذا خرجت إلى الدنيا فلاقها بقلب النقى المؤمن»(٦٧).

وتحولت الأم لشخص صامت ،مغلوب على أمره بعد زواج كامل ،يقول: «ولقد جعلت من حجرتها سجنًا لا تكاد تغادرها ،وكأنما فرغت للعبادة، والصلاة»(٦٨).

ويدلل لنا على سر عجزه ليلة زفافه «وعلى حين بغتة انحرف ذهني إلى حجرة أمي دون داع وتساءلت هل نامت؟»(٦٩).

إنَّ هـذا الاضـطراب ،والعجـز ،والتـوتر، والخلـط فـي ذهـن الـراوي يجعلنـا نعـود لنشـأته المتخبطة في أحضان الخادمات ،وممارسته العادة السرية في سن مبكرة.

ويحـاول الانتصـار علـى عجـزه بتعـويض آخـر وهـو "الخمـر"، يقـول: «ولا عجـب فـالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وقررت مصائرنا»(٧٠).

وحين يـزور والـده يقـول عـن الخمـر «أدركـت تـوًا أنـى حيـال الشـراب المعلـون الـذي فعـل بأسرتنا الأعاجيب»(٧١).

ويصور التخبط والشذوذ الذي كان يعانيه من تعلقه بالدميمات في شعوره بالرغبة الجامحة نحو "عنايات" يقول: «وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة بل هي الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة»(٧٢).

ثم يعلل لنا سر تعلقه بهذه المرأة وزوجته يقول: «فهذه روحي وتلك جسـدي، ومـا عـذابي إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده»(٧٣).

لكن عجزه مع زوجته واختلاف والدته معها والصراع الدائم بين الزوجة والأم جعل الأم تمرض ،وتظل طريحة الفراش مما جعل رباب تيأس من الحياة مع كامل وهنا تحدث العلاقة الجسدية الكاملة، لكنها علاقة غير مشروعة بينها وبين الطبيب مما يتمخض عن حملها سفاحًا و يضطر الطبيب لإجراء عملية إجهاض تموت على أثرها.

وهنا يتجلى إدراك نجيب محفوظ لموقف المجتمع من الرجل والمرأة؛ فالمرأة حين تقع في الخطيئة ،وتنفضح علاقتها ينفر منها المجتمع ،ويلفظها ،فلا تجد سبيلاً للخلاص إلا بإخفاء معالم هذه الخطيئة وهو الإجهاض ،حتى ولو أدى بها للموت.

وحين يكتشف كامل موتها يتهمهم بقتلها، لكن الطبيب يقف أمام النيابة معلنًا مسئوليته الكاملة عـن الجريمـة مؤكـدًا أن كامـل لـم يكـن إلا زوجًـا علـى الـورق فقـط، وهـو المسـئول الأول والأخير عما أصاب رباب.

وحين تموت رباب يذهب كامل لأمه معلناً كفره ،وإلحاده أمامها ويخرج دون أن يسمع توسلاتها .ويفاجأ بالناس تنعى الوفاة ،ولكن الغريب أن النعي الذي بالجريدة لأمه. لقد قتل كامل

أمه حين رفض أن يسمعها ،كما قتلته هي بحبها وعطفها وإسرافها في صنع مملكة الخوف والقيد، التي حولت منه شخصًا مضطربًا نفسيًا ،وعقليًا مما أدى به في نهاية المطاف للتطهر بالزهد والتصوف. وكان يشرد بخياله، ويحلق في سماء التوبة ،إلا أنه كان من حين لآخر تنتابه مخاوف الماضي وقلاقله.

و قد ترك الراوي الرواية مفتوحة القفلة ،فالخادمة تخبره في ذات صباح أن سيدة تريد مقابلته، وأنها أدخلتها حجرة الاستقبال.

فعندما يراها يهتف منفعلاً "أنت" ،ويتركنا المؤلف مع حيرتنا ودهشتنا ،دون أن يخبرنا عن الزائرة.

ترى هل هي عنايات أم أخرى !

كما نلاحظ استخدام المؤلف للوحات الشاعرية وينجلي هذا في قوله "فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذابي إلا عذاب من لا يستطيع أن يزواج بين روحه وجسده.

وبعد هذا العرض أجد أن رؤية الدكتور عز الدين إسماعيل،وهي أن البطل كان يعاني عقدة أوديب وعقدة أورست قريبة للصحة. فقد كره كامل أمه حين تعارض حبه لها ووقف حجر عثرة في ممارسته لحياته الطبيعية مع زوجته ويتضح هذا من أحلام اليقظة التي كان يرى فيها محبوبته ،وعلاقته الكاملة بها .لكن دون أمه، وتأنيب ضميره له ،واستغفاره ،وطلبه من الله أن يطيل في عمرها .فهو في اللاشعور يريد التخلص منها لأنها سر عجزه ،وخوفه ،وسر كل مشاكله في الحياة بل ربما تكون هي السبب الرئيسي في فشله في التواصل مع المجتمع، ومن ثم فشل في التواصل مع زوجته التي كان يحبها من كل قلبه .وربما كان هذا الفشل هو سبب خيانة حبيبته له،وحملها سفاحًا من آخر،وإجهاضها الذي تسبب في موتها فهو يرى أمه كانت سبباً غير مباشر في خيانة زوجته ،وموتها ،وكانت سببًا مباشرًا في عجزه وفشله.

وقد بنيت هذه الرؤية وهذه النتيجة على مقدمات، عرضتها في البحث في الصفحات السابقة، فالهدف من البحث هو الوصول لتصور نفسي للرواية فمن العجيب أن يختار نجيب محفوظ اسمًا للبطل العاجز = كامل، أمين = الطبيب الخائن وجبريل السيد وهو مجبور في بيته .فهل اختيار نجيب محفوظ لأسماء أبطال الرواية جاء محض صدفة؟! أم أنها السخرية، التي

نقرأها من بين سطور الرواية والتي ترمز لتناقض المجتمع والواقع وحالة التشابك غير المرئية للعامة بين واقع البشر ،وتصرفاتهم في المجتمع وبين حقيقتهم التي يخفونها وراء أقنعة كثيرة. ربما لا تخرج إلا حين يشربون الخمر التي جعل منها نجيب محفوظ سرًا للحياة واللذة والنشوه، بل هي الحياة لوالد البطل والبطل ،وربما أراد إثبات أنّ المجتمع الغارق في اللذة ،الذي يهرب من الحقيقة لا يملك القوة لمواجهة عجزه وقهره وخوفه الحقيقي من مواجهة الفساد السياسي في ذلك الوقت.

ففرويد يربط «بين الجنس والمجتمع فيرى أن الإنسان هو الحيوان الجديد بالانحرافات الجنسية وأنه متفوق على الحيوان بفعل الأمراض العصبية المتأنية من النزاع القائم بين غريزة البقاء وبين العلاقات الجنسية»[٧٤].

وربما أراد نجيب محفوظ أن يدلل على انهيار المجتمع من خلال تخبط واختلال كامل وعجزه النفسي والجنسي.

هوامش البحث

(١) ينظر في مناهج البحث وتحقيق النصوص، د. زكريا عناني، د. سعيدة محمد رمضان، نشر دار الفتح للطباعة والنشر، الإسكندرية، ص ١١.

(٢) يوسف خليف: مناهج البحث الأدبي، طبعة دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٤٧.

(٣) ينظر على سبيل المثال في مكتبتنا العربية، كتاب الدكتور مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، ط دار المعارف، ١٩٥٩، ينظر محمد خلف الله أحمد: من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ط دار العلوم والطباعة والنشر، ١٩٨٤م، الطبعة الرابعة.

(٤) ينظر على سبيل المثال: حامد عبد القادر: دراسات في علم النفس الأدبي، لجنة البيان العربي، المطبعة النموذجية، ١٩٤٩م، وعز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.

(٥) عثمان موافي: مناهج النقد الأدبي والدراسات الأدبية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠١٠م.

(٦) عباس محمود العقاد: الأخبار ٥ / ٤ / ١٩٦١م، اليوميات، دار المعارف، ج٢، ص ١٠.

(٧) عباس محمود العقاد: دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، نشر نهضة مصر، ١٩٩٩م، ص ١١.

(٨) فولفالج إيزر: عمليات القراءة، ترجمة: علي عفيفي، مجلة فصول، القاهرة، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، ربيع، ١٩٨٨م، ص ١٤٧.

(٩) انظر روبرت هولب: نظرية التلقي – مقدمة نقدية، ترجمة: د. عز الدين إسماعيل، نشر النادي الأدبي الثقافي بجدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

(١٠) ينظر في لسان العرب لابن منظور، مادة (قرأ)، والزبيدي: تاج العروس، مادة (قرأ).

(١١) د. حسن مصطفى سحلول: نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص ٩.

(١٢) مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف: مجموعة من الكتاب، ترجمة: رضوان ظاظا، مراجعة د. المنصف الشنوفي، الناشر: عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧م، ص ٦٢.

(١٣) جان بيلمان نويل: التحليل النفسي والأدب، ترجمة: حسن المودن، نشر المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧م، ص ١٠.

(١٤) عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، نشر دار غريب للطباعة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م، ص ١.

(١٥) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، مادة (سرب)، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤م، المجلد السابع، ص ١٦١.

(١٦) انظر محمود أمين العالم: تأملات في عالم نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ٤٢ وما بعدها.

(١٧) انظر محمود أمين العالم: تأملات في عالم نجيب محفوظ، ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ٤٢ وما بعدها.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(١٩) د. عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، ط٤، ١٩٨٤م، ص ٢٥٤.، وانظرالدكتورطه وادي،أميرالروايةالعربية ،سلسة إقرأ ،دار المعارف ط٢٠٠٦،ص٢٧أ رواية السراب تعد من مراحل الواقعية النقدية (١٩٤٥م_١٩٧٥م) وهي المرحلة التي اهتم فيها بتصوير بعض أزمات الواقع المصري قبل ثورة١٩٥٢م،ويشاطره الرأي د.ممدوح فرّاج النّابي في كتابه "نجيب محفوظ الذاكرة والنسيان "،طبعة الهلال ٢٠١٥م،ص٢٣٨ حيث يرى أن ما قام به الدكتور عبد المحسن طه بدرفي كتابه :نجيب محفوظ :الرؤية والأداء،دار المعارف،ص ٣٣١،ص :٣٣٤ بُعد بالرواية عن هذا الاطار ونحا بها منحى آخر فقرأ الرواية من منظور واقعي اجتماعي ورأى في الرواية دليل على تفسخ طبقة أوشكت على الانهيارمتخذاً من عائلة الأب رؤبة لاظ دليلاً على هذا التفسخ الذي يشير بمعنى قريب إلى أفول النموذج التركي الذي تعد أسرة "لاظ "نفسها وريثاً له وما يوازيه من أرستقراطية ممقوتة.،ينظر د.حمدي السكوت : نجيب محفوظ ببليوجرافيا تجريبية وسيرة حياة ومدخل نقدي ،طبعة هيئة الكتاب ٢٠٠٧،وينظر

أحمد عباس صالح : السراب ،الأديب المصري يناير ١٩٥٠ ص:٥٣_٥٥

(٢٠)نفسه، ص ٢٥٦.

(٢١) د. يحيى الرخاوي: إشكالية العلوم النفسية والنقد الأدبي، فصول، مجلد ٤، عدد ١٩٨٣م، ص ٥٠.

(٢٢) د. يحيى الرخاوي: قراءات في نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص ١٢٠.

(٢٣) نجيب محفوظ: المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، مكتبة لبنان، ص ١٢.

(٢٤) نفسه، ص ٤.

(٢٥) نجيب محفوظ: المؤلفات الكاملة، ص ٤.

(٢٦) نفسه، ص ٩.

(٢٧) نفسه، ص ٨.

(٢٨) نجيب محفوظ: الأعمال الكاملة، ص ٩.

(٢٩) انظر د. نبيل راغب: قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٨م، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٣٠) جورج طرابيشي: الأدب من الداخل، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص ١٦٦.

(٣١) نفسه، ص ١٩٠.

(٣٢) د. غالي شكري: أزمة الجنس في القصة العربية، طبعة دار الشروق الأولى، الطبعة الرابعة، ١٩٩١م، ص ٦٧.

(٣٣) د. عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، نشر، عالم المعرفة، ١٩٩٨م، ص ١٧٦.

(٣٤) نجيب محفوظ: الأعمال الكاملة، ص ١.

(٣٥) نفسه، ص ١٥٧.

(٣٦) نجيب محفوظ: المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، السراب، ص ٢٥.

(٣٧) نفسه، ص ٥٧.

(٣٨) نفسه، ص ٦٥.

(٣٩) نفسه، ص ٤.

(٤٠) نفسه والصفحة نفسها.

(٤١) نفسه، ص ٤.

(٤٢) نفسه، ص ٣٥.

(٤٣) نفسه، ص ٦.

(٤٤) نفسه، ص ٢٨.

(٤٥) نفسه، ص ١.

(٤٦) نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٧) نجيب محفوظ: المؤلفات الكاملة، ج٢، السراب، ص ٢٠.

(٤٨) نفسه، ص ٣١.

(٤٩) نفسه، ص ٢٠.

(٥٠) نفسه، ص ٣٦.

(٥١) نفسه، ص ٣٧.

(٥٢) نفسه، ص ١٣٩.

(٥٣) نفسه، ص ٨٧.

(٥٤) نفسه، ص ٨٩.

(٥٥) نفسه، ص ١٠٣.

(٥٦) نفسه، ص ١٢١.

(٥٧) نفسه، ص ٥٢.

(٥٨) نفسه، ص ١٥١.

(٥٩) نفسه، ص ٩.

(٦٠) نفسه، ص ٨٠.

(٦١) نفسه والصفحة.

(٦٢) نفسه، ص ٤.

(٦٣) نفسه، ص ١٠٧.

(٦٤) نفسه، ص ١١١.

(٦٥) نفسه، ص ١١٥.

(٦٦) نفسه، ص ١١٠.

(٦٧) نفسه، ص ١٢٤.

(٦٨) نفسه، ص ٢٤٦.

(٦٩) نفسه، ص ٢٢٢.

(٧٠) نفسه، ص ١١٦.

(٧١) نفسه، ص ٥٤.

(٧٢) نفسه، ص ٣٠٦.

(٧٣) نفسه، ص ٣٠٩.

(٧٤) فرويد: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ص ٤٥٨، راجع الدكتور محمد عبد الحكيم عبد الباقي في كتابه "الفن الروائي عند نجيب محفوظ"، القاهرة، دار المعارف، مصر ١٩٨٩م، ص ١٧٦.